

# فقه التغيير وإشكالية الاستعجال: سنة التدرج والأجل المسعى مفاتيح لفهم السنن الإلهية



الاثنين 29 ديسمبر 2025 م 05:00

يلقي لدكتور العلامة الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، الضوء على سنة "الدرج" كواحدة من السنن الإلهية التي يغفل عنها المتعجلون، مؤكداً أنها قانون كوني وشرعى في آن واحد مـن الناحية الكونية، خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وجعل الكائنات تنمو عبر مراحل، رغم قدرته على خلقها بكلمة "كن". أما شرعاً، فقد تدرج الإسلام في التشريع، بادئاً بتفسير العقيدة قبل فرض الفرائض وتحريم المحرمات، كما أوضحت السيدة عائشة في حديثها عن تدرج تحرير الخمر والزنا لضمان استجابة النفوس

وبعد العلامة دعاة الإصلاح اليوم لمراعاة هذه السنة، مستشهداً بحكمة الخليفة عمر بن عبد العزيز في رده على حماسة ابنه للإسراع في التغيير، حيث أوضح له أن حمل الناس على الحق دفعه واحدة قد يؤدي إلى تركه دفعه واحدة، مما يسبب الفتنة، مفضلاً التدرج كما تدرج القرآن في تحرير الخمر

ومن السنن المهمة التي يغفل عنها المتمحمسون والمتعجلون سنتان مهمتان هما: سنة التدرج، وسنة الأجل المسعى

## الدرج مـن قانون كوني وتشريع رباني

فأما التدرج فهو سنة كونية، وسنة شرعية أيضاً ولهذا خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وكان قادراً أن يقول: كوني فتكون، ولكنه خلقها في أيام ستة من أيام الله تعالى، أي في ستة أطوار أو أزمنة يعلمها الله، فليست هي أيامنا هذه إذ هي قبل خلق الشمس والأرض وما يتبعهما من ليل أو نهار وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات، كلها تدرج في مراحل حتى تبلغ نعماها

فهذا من الناحية الكونية، وأما من الناحية الشرعية، فقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتبني العقيدة السليمة، ثم كان التشريع شيئاً فشيئاً فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج، كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة، وتحريم الخمر وغيرها، ولهذا افترق القرآن المكي عن المدنى وفي هذا المعنى تقول عائشة رضي الله عنها، واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن: "إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر ولا تزدوا، لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنى أبداً".

## دعوة لاستلهام التدرج في الإصلاح المعاصر

ومن هنا كان على الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية، وإقامة دولة الإسلام في الأرض، أن يراعوا سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين في الاعتبار سمو الهدف، ومبادرات الممكنات، وكثرة المعوقات ويدعوني هنا مثل من سيرة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خامس الراشدين المهدى بهم، فقد أراد عمر أن يعود بالحياة إلى هدي الخلفاء الأربعه وذلك بعد أن يتمكن ويمسك الخليوط في يديه، ولكن كان ابنه الشاب الغيور عبد الملك من الأنقياء المتمحمسين، ينكر على أبيه عدم إسراعه في إزالة كل بقايا الانحراف والمظالم والتعسفية على آثارها، ورد الأمور إلى سنن الراشدين

حكمة عمر بن عبد العزيز درس في السياسة الشرعية

فقال له يوماً: مالك يا أبت لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي، لو أن القدور غلت بي وبك في الحق! فكان جواب الأب الفقيه المؤمن: لا تعجل يابني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإنني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة